وعلى من يدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : «يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لى »[1] .

« وهو على كل شيء وكيل » أى سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهى مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتى الآية التالية لتؤكد دواعى عظمته سبحانه فيقول :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئى إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدورا لكم ؛ لأنه دخل فى إدراككم. فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً ابداً ، إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعى أنك أدركتها ؟! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة، وحين يقال «أدركه » أى لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : ﴿ إنا لمدركون ﴾.

أى لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن « مُدرك » يعنى محاطا به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرا ، وصار الله مقدورا عليه . والقادر بذاته — كما قلنا — لاينقلب مقدورا لخلقه أبدا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

(سورة الأنعام)

وكل ماعدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته ، وكينونته سبحانه ليست عند أحد ؛ لذلك « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » لأنه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والباقي مقدور له ؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقا له يكون مقدورا عليه ولم يطرأ على المخلوقين شيء جديد يجعلهم قادرين بذواتهم (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسان يرى ربه أو لايراه سواء فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنص الآية : « لاتدركه الأبصار » ونقول : لكن هناك آيات فى القرآن تقول :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾

(سورة القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدها ، وأيضا فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ؛ لأنه القائل :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾

(سورة المطففين)

فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقابا لهم . ولو اشتركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين ؟ ، إذن فالعلماء لم يتنبهوا إلى أن هناك فرقا بين الأداء القرآنى وما يقولون ؟ وحين يحتج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

إذن فالله يتجلى لبعض خلقه . أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق . بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟! إذن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلَّى خلافهم إلى أبعد حد ؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم فى غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفى الإدراك ، والإدراك إحاطة ؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان فى المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف فى أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف فى أمر الرؤية فى الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه فى الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة فى أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهى زيادة فى الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول - إيضاً - : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد فى الآخرة بكيفية ليست موجودة فى دنيانا ؟ لأننا فى هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب - وفى الآخرة سنكون معدين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشىء الفلانى ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لى كذا أو تشترى ما تريده ، إنما هناك فى الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ماتشتهيه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا ، فلماذا لايكون فى تكويننا فى الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفى إطار ليس كمثله شىء ؟

إن فى الآخرة قضـايا يتفق الجميع على أنها تخالف قوانين الدنيا ونواميس العالم المعاصر لنا الآن فى الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن فى الآخـرة سنأكل ونشرب ولكن لن تـوجـد فضـلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفى الهضم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لابـد أن تخرج ، لكن الطهى والهضم فى الآخـرة بـ « كن » وليس لـه فضلات ، إنـه طعام بقدرة القادر ، فى الجنـة كل ماتريده ستناله دون أن ينفـد ، وفى الدنيـا أى شىء يـؤخذ منه ينقص ، أمـا فى الآخـرة فلاشىء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضيتين : « لاتدركه الأبصـار وهو يـدرك الأبصـار » فيقـول : « وهـو اللطيـف الخبير » ولطيف تنـاسب «لاتـدركه الأبصـار » و « خبير » يناسب « وهـو يدرك الأبصـار » ولطيف لها معنى خـاص ، فالشىء اللطيف يستعمـل فى دقيق التكوين ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لاتـدركـه العين ، لكـن عنـدمـا اخترعنـا الميكـروسكـوب رأينـاه ،وإن دق الميكـروب عن ذلك فلن نـراه ، وقـد اكتشفنـا « الفيروس » ونحاول معرفـة المزيـد عن خصـائصـه ، إذن كلما دق الشىء يلطف ولا يمكن أن نـراه، فـالشىء إذا لطف شرف وعلا ونقـول ــ وللـه المثل الأعلى ـ : فـلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعـة ما تسمع « لاطف » فهذا اسم فـاعل ، مثلها مثل «آكل»، وحين نقـول : « لطيف فهى مبـالغة فى اللطف ؛ لأنـه لاطف بكل إنسـان وكل كـائن وهذا يحتـاج إلى مبـالغـة ، ولذلك نقـول : رحيم ، وهى صيغـة مبـالغة ؛ لأنـه يسبغ رحمته على عباده ، وأول مظهـر من مظاهـر اللطف ، هـو تدبير أمـورهم الدقيقـة تدبيراً يحقق مصـالحهم فى وجودهم . إننـا حين ندير كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعهـا ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريـد أن يوسع رقعـة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتهـا ، كان البخـر فيها أسهل وأكثر ، لكن لـو كانت الميـاه عميقة ومساحتهـا قليلة فالبخـر يكون على مستـوى السطح فقـط ، وهنـا لايأتى السحـاب بما يكفى الخلق من

الماء . لقد وسع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب أنعامنا ، ونسقى الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف في الحق نجد أموراً لاتوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل لزاوية من زوايا لطف الله على خلقه .. فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثانى : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير النعم على خلقه ، فالنعم التى منحها خلقه قليلة لأن خزائنه - سبحانه - ملأى وعطاياه لاتنفد ولا يعتريها نقص، ولذلك قال سبحانه :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

أى أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفى المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أى يعتبرها - تفضلاً منه - كثيرة ؛ لأنه هو الذى يجزى الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل :« يابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منهم ، وإن دنوت منّى شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منّى ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهرول »[1] وكلها مظاهر لطف . وهو المنادى : « توبوا إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة»[2] وإذا قربت من الله هداك .

---

(١) رواه أحمد عن أنس .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

ويأتى عالم آخر ممن انفعلوا بصفات اللطف ، فيقول : الذى يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : من افتخر به أعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .. أى أنه لو منع عبده شيئا فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : « لاتدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل فينا لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أى أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لاتقدر أن تؤدى الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لايستعصى عليه شىء فى ملكه ، وهو الذى يدرك الأبصار ، فقوله : « لاتدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف » تماماً كما أن « وهو يدرك الأبصار » يناسبها « خبير » ، وهذا مايسمونه فى اللغة « لف ونشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمته بنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال :

﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

لنسكن فى الليل ، ونبتغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه - كما قلنا - «لف ونشر» .

ويقول الحق ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التى تأتى فى القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصى ومنحه النور الذى يجلى له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول فى البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثانى فى البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحديد)

وهو نور الهداية فى بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم . فقانون الصيانة فى ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة فى معنويات الحياة خاصة بالمؤمن .

وهو القائل :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجيء للأمر الحسّى ؛ كقولنا : «جاء زيد » أو «جاء عمرو » ولك أن تتصور البصائر وهى تأتى ، قال الحق :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المائدة)

إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتى إلينا بمشيئته .

« قد جاءكم بصائر من ربكم » أى أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسّة تجىء ، ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تجىء من الرب الذى خلقنا بقدرته وأمدنا فى كل شىء بقيّوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطى ما يهدى ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلّغ ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقى أن تؤدوا ولاعذر لكم من المشرع الأعلى الذى خلق وهو الرب . ولا من المبلغ المعصوم وهو الرسول .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فتقول : لاشىء . فيقول الابن : لقد بعث أبى اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمى ؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولاً تعرفون عنه أنه صادق فى بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقى من المسألة عندكم أنتم ، وكل واحد عليه أن يؤدى ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمى فعليها . فإياكم أن تفهموا أنى كلفتكم بما يعود علىّ فى ذاتى ، ولا مايزيد من سلطانى شيئا ؛ لأن خيرها لكم أنتم ، ولا آمن على التشريع ممن لايفيد من التشريع ؛ لأن من يستفيد منه قد يشرّع لمصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .

يقول سبحانه :

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج ، وقد خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يُدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم ، وسبحانه لم يبعث الرسول جبارا بل بعثه رحيماً ؛ لذلك يقول الله فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم : «وما أنا عليكم بحفيظ » والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأنه شرَّع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واعٍ . والرسول هو المبلغ والحق يقول :

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمى الاختيار بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

«كذلك نصرّف » . أى أنه يأتى لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتى الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويرقق قلوبهم ، ويأتى بنماذج من الرسل ، ومواقف أممهم منهم حتى نصادف فى كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة

فعندمـا يكرر الأحداث وينزل فـيهـا من التشريع والمـواعظ فقد ترق قلوبهـم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية .

« وكذلك نصرف الآيـات وليقولوا درست » ما معنى : « ولـيقولوا درست » ؟ إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد ، لكن إن وجد فى الذات الإنسانية نفس لوّامة فهى منّاعة للنفس ووقاية لها . فإن فـعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللوّامة وصارت النفس أمّارة بالسوء ، امتنع فى المجتمع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قـد طمّ . وهنا تتدخل السماء وتأتى ببيان جديد ومعجزة جديدة .

إن الفساد لا يتـأتى إلا من وجود طبقات تطحن فى طبـقات ، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستـقبلون المنهج بشوق ، لكن الطاحن المستفـيد من الفساد هو الذى يعارض المنهج . ولذلك فـإن كل جماعة حـاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكنّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم .

إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين ؛ لأن السماء لم تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاوم له . وهكذا يجعل الله لكل نبى ورسول عدواً من المجـرمين ، وهذا العـدو يفتن به الناس ، ويمـيل له ضعـاف العقـائد . والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعى الحق إلا المؤمنون الصادقون .

ولذلك تجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور ؛ فـمثلاً تأتى حادثة الإسراء فمن كان إيمـانه مهتـزّاً ينكر الإسراء ، وذلك من أجل أن يذهب الزبد ويبـقى من يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كان إيمانه ضعيـفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه .

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إذن فالحق سـبحانه وتعـالى قد صرّف الآيات لينصـر المطحونين ، وحينمـا قال الرسول صلى الله عليـه وسلم ذلك قالوا درست وادعـوا أنه كان قاعـداً فى الجبل ، وتعلم من أعجمى . ولذلك نجد الحق يقول:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

ويأتى الرد من الحق :

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

إن سيدنا عمر رضى الله عنه حينما كان فى الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال : « والله إنى لأقبلك وإنى أعلم أنك حجر وأنك لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ماقبلتك »(١).

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعض الناس وقال : ماسبب علة تقبيل الحجر الأسود ؟فيكون الجواب حاضراً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه ومؤدٍ له فلابد أن نفهم حقيقة المراد ، مثلما يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

---

(١) رواه مسلم

وبأى شىء نادى الله خلقه المؤمنين هنا ؟ لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » ، فكيف يقول : « آمنوا » ؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيمانا استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أغيار . فيوضح أن الإيمان الذى استقبلتم به التكليف من خطابى داوموا أيضا عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أى كما آمنتم إيمانا جعلكم أهلا للتكليف فى مخاطبتكم وقلت لكم يأيها الذين آمنوا : الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقوله الحق: «اتبع ماأوحى إليك » هو قول لرسول متبع ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتباع ، ولايحزنك مايقولون يامحمد ؛ لأنك مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ويقول الحق بعد ذلك موجها حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

ونعلم أن الوحى هو إعلام بخفاء ، وكل وحى هو إعلام بخفاء وقد أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصور شتى ، ولكن كل مايتصل ويختص بالقرآن كان بواسطة جبريل : وقوله الحق (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

أى أنه لايوجد إله إلا هو سبحانه ، ولايمكن أن تغير أنت المنهج النازل إليك منه ، وعليك أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض الفطنة والإرشاد والبلاغ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لابد أن نستصحبها فى تاريخنا الإيمانى، والقضية هى : أن أىَّ كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أى خلقه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاغصبا عن ربنا أو قهرا ، بدليل أن الكون الذى نحيا فيه مقهور بالأمر ، لايمكن أن يختار إلا مراد الله منه ، وكل مافى الكون يسير إلى مراد الله .

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله ؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله. وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذى يرتب عليه الثواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف بـ«افعل» و « لا تفعل » . وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس فى الكون ؛ قهرها بطول العمر، وأنها تؤدى مهمتها كما أراد الله منها ، إنّه قهر الشمس ، وقهر القمر ، وقهر النجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة فى الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم :

﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا . ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على مايريد ؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا فاعلين لما يحبه ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لايحبه ، كأن خلق القهر فى الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة ، وأنه لايمكن لمخلوق أن يشذ عن مراد الله منه . وبقى الاختيار فى الانسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تثبت صفة المحبة .

وحين يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يطيع،ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لاقهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يامحمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقا أوقلوبا؟ إنك يامحمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتى بالاختيار . فلوشئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم.

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف. بدليل أنه لاتكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هى العقل . وكذلك لاتكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوى السليم . ويمنع عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتى التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لاتكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه :

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ